

الطفل المعضل^(١) مشكلة طيبة نفسية اجتماعية

بقلم

محمد عماد الدين اسماعيل — وعظيمة محمود هاشم

مدرسي علم النفس، تعبد التربية للمعالمين

بالرغم من أن لفظ «الطفل المعضل» لم يصبح له مفهوم معين إلا حديثاً . فإنه لا يجب أن نظن أن مشاكل الطفولة لم تظهر في الوجود إلا عندما واجه الباحثون الطبيون والنفسيون والاجتماعيون ذلك الموضوع الغريب الذي كان عليهم أن يعالجوه في مرحلة الطفولة . ويمكننا أن نرجع إلى التوراة لكي نعرف أن المفكرين القدامى قد نظروا بالفعل إلى الطفل باعتباره مشكلة في التربية بالمعنى الواسع للتربية الخلقية — على أنه يجب أن نعرف أن تقدم المدنية إلى تلك الصورة المعقدة التي وصلت إليها اليوم جعل من الصعب على الطفل أن يجتاز مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة ، ومن ثمة إلى البلوغ بالسهولة التي كان يجتاز بها هذه المراحل في الأزمنة البدائية أو في مجتمعات أكثر بدائية من المجتمعات الحالية . وبالرغم من أن المشاكل الأساسية للعقل الإنساني لم تتغير منذ الأزمنة البدائية فإننا يجب أن نعرف أنه كان من أثر الحياة الجماعية في العقل الإنساني كما نعرفه اليوم ما سبب له شيئاً من التوتر والاستعداد للانحلال والتهدم لم يكن موجوداً من قبل . أو على الأقل كان موجوداً بشكل أخف بحيث لم يكن كافياً لإحداث اختلال سواء في سلوك الإنسان باعتباره فرداً أم في علاقته الاجتماعية . فلقد تغير وجه المدنية في المائة والخمسين سنة الأخيرة بحيث انحلت بعض النظم الأساسية في المجتمع مما نتج عنه تعديل السلوك الذي كان مبنياً على هذه النظم .

(١) The Difficult Child. (عن) Emanuel Miller

لكي يواجه الظروف الجديدة ، إذ كانت نتيجته اتخاذ شكل شاذ في السلوك لانعدام القدرة على التكيف مع هذه الظروف الجديدة في بعض الأحوال . فلا غرابة إذاً أن نسمع في هذه المائة والخمسين سنة الأخيرة على وجه الخصوص نداءات « الرجوع إلى الطبيعة » ونقرأ أفكاراً عن نظام جديد للمجتمع واتجاهات إنسانية عظيمة نحو العجزة والمجربين والمحتاجين واليتامى . ونستطيع أن نؤرخ الاتجاه الإنساني الذي أشرنا إليه وتأثره بالعلم الذي اصطفت به دراسة الطفل . وربما كان روسو الفيلسوف الفرنسي هو أول من أكد الحاجة إلى تربية الطفل وتهذيبه عند ما ثار ضد بعض التقاليد في السياسة والاجتماع .

أما في يومنا هذا فإن هناك مصدرين رئيسيين قد غنيا دراسة الطفل المعضل أحدهما مصادر عقلية والثاني وجداني . أما الأول فهو نمو علم النفس الذي أمد هذه الدراسة بما أثارها من انثاقية ، لعتاقية . وأما الثاني فهو الحماس الإنساني والاجتماعي الذي نشأ عن إدراك أن أولئك الذين كان سلوكهم مشكلاً ليسوا بمجردين بل هم يعانون مرضاً ، يمكننا بشيء من البحث المستفيد أن نجد له دواء وهذه هي الناحية الوجدانية وتاريخها ليس طويلاً فإن الحماس الإنساني والاجتماعي لم ينتظم انتظاماً دقيقاً كعلم الخدمة الاجتماعية ، قائم بذاته ، إلا في العشرين سنة الأخيرة فقط ، ولقد أفاد علم الخدمة الاجتماعية هذا دراسة الطفل المعضل فوائد جلى .

العوامل التي تساعد على جعل الطفل معضلاً :

لم نستطع كل من التربية أو علم النفس أو الخدمة الاجتماعية أن تلقى ضوءاً كافياً للكشف عن جميع الصعوبات التي تعترضنا في سبيل دراسة الطفل المعضل . ولا يفوتنا بالطبع أن نذكر الطب إذ أنه كان أحياناً العلم الوحيد الذي يستطيع أن يفسر لنا أسباب الشذوذ في السلوك الإنساني . بل لقد استطاع أيضاً أن يلقى ضوءاً على العلاقة بين الظروف الاجتماعية وما كشف عنه هذا العلم نفسه من نتائج سوء التغذية . ولكن الطب وحده لا يستطيع أن يفسر كل شيء . ولقد أفاد حقاً من الصلة التي اضطرب أن يخلتها بينه وبين علم النفس والخدمة الاجتماعية فقد مضى الوقت الذي كان فيه الطبيب يعمل في عزلة الرائعة ، في غرفة استشارية ، مستعداً لتشخيص كل حالات سوء سلوك الطفل تشخيصاً طبيياً محضاً — عدا تلك

الحالات التي لم يكن لها عنده تفسير طبي . وهذه كان يعزوها غير مدقق إلى انحطاط المستوى الخلقي عند الطفل المعضل . وقد كان من السهل أن ينعت أفراد هذه الفئة المسكينة الشاذة بأنهم ضحايا « الخطيئة » الأولى ، تلك الخطيئة التي كانت تفسر بأنها وراثية عند الأطفال الشواذ وعلى ذلك كان من السهل جدا استبعاد هذه الحالات الشاذة عن وظيفة الطفل . وقد ظلنا هكذا طيلة المدة التي لم نكشف فيها عن العنصر الطبي الوراثي في الطفل المعضل . ظلنا في دراستنا المعقدة نعتقد أنه في كل حالة من هذه الحالات الشاذة تلعب عوامل وراثية الخطيئة الأولى ونقص الأغذية - أى التغذية - وسوء التربية دورها .

مميزات الطفل المعضل :

ما هي الأعراض التي تجعلنا نطلق على الطفل كلمة « معضل » ؟ الطفل المعضل أو مشكل هو أى طفل يظهر منه من الخصائص إلى البلوغ عدم التكيف في سلوكه مع المجتمع الذي يعيش فيه ومع فكرة السعادة كما نتصورها نحن له . ولذلك اتفق على تقسيم معالجة الطفل المشكل إلى ناحيتين ، ناحية عامة . وناحية خاصة . وذلك لسبب جوهرى يعزز الناحيتين . فالناحية الأولى هي أن الطفل وهو نواة الرجل سيصبح مواطناً في النهاية ، ولهذا كان الاهتمام به واجبا على الأم والمعلم وصاحب العمل والمشرع . ومن الناحية الأخرى لا يجب أن ننسى الجانب الشخصى الخاص به . جانب سعادة الطفل نفسه إذ بدون الإحساس الداخلى عند الكائن الحى بالتناسق والانسجام اللذين يتتجان عن الشعور بالتناسق والانسجام في علاقته بالعالم الخارجى . بدون ذلك لا يكون الكائن الحى كاملاً . وعلى ذلك فإنه يلجأ حتماً إلى عملية التعويض - بأى طريقة كانت - لكي يهيئ لنفسه السعادة . ولهذا السلوك الذى يهيئ به الطفل السعادة لنفسه أثره في كل من الطفل والمجتمع .

التطور التاريخي لطفل المعضل :

من المفروغ منه أنه لا يجب علينا أن نشغل أنفسنا بتلك المشاكل التقليدية كمشكلة طبيعة النفس الإنسانية ومصيرها . إلا أننا مضطرون أن نقف لحظة لننظر في تلك الناحية من نواحي مشكلة الطفل المعضل أى موقف الطفل من نفسه .

وإن ما يظهره سلوك كل منا وكلماته إنما يعبر في الواقع عن جزء عارض وصفحة محدودة من حياته ولكنه مع ذلك يحمل معنى أكثر وأعمق . فكل منا ما هو إلا تاريخ يمتد إلى ساعة الميلاد . مع إحساس غامض برغبته في أن ينشأ عما سيصير إليه ، ويصدق هذا من باب أولى على الطفل كما يراه الكبير . والكبار منا الذين لم يحصلوا على ثقافة سيكولوجية أو حصلوا على القليل منها . والذين ليس لديهم من البصيرة إلا النذر اليسير لا يرون في الأطفال الذين يتصلون بهم أكثر مما يبدو لهم بالفعل أثناء سلوكهم . ثم هم بعد ذلك يفسرون سلوك هؤلاء الأطفال بالرجوع إلى طفولتهم أنفسهم « ولكننا في الواقع قد شكلنا قوى المجتمع والأسرة إلى درجة أن معظمنا ينسى ما كان عليه عند ما كان طفلاً - وبالتالي ينسى ما كان يرغب فيه وما كان يشعر به وما كان يعاني منه كطفل . فإذا ما طبقنا مستويات الكبير على الصغير فإننا في الواقع نقيم سدا منيعاً بين وبين فهم طبيعة عقله - وعلى ذلك فإن أهم شيء في دراسة الطفل المعضل أو أي طفل هو أن نتغذى إلى أعماقه ، وأن ندرس نواياه وأغراضه أي نكشف عن كيف نمت غرائزه وميوله الأساسية » وإلى أين تتجه . ولذلك فإن تاريخ الطفل كفرد هو الأساس الأول في دراستنا وعلى ذلك فالسؤال الأول الذي نسأله أنفسنا يجب أن يصاغ كالاتي : - كيف يفسر لنا التطور التاريخي للطفل باعتباره وحدة عقلية جسمية خلقه كما نراه في الوقت الذي نبحثه فيه .

ويذكر لنا علم نفس الطفل أن أكثر الفترات مرونة وليونة في حياته هي فترة ما قبل السنة الخامسة من عمره « ففي هذه السنين الخمس الأولى . يكون الطفل عبارة عن حزمة من الغرائز غير المتماسكة . والحاجات العضوية الأساسية . لا بمعنى أنها خالية من التعقيد بل بمعنى أنها خالية من التهذيب . وخير ما يتصف به سلوك الطفل هو أنه من نوع إما الكل أو لا شيء . فهو يأخذ ما يريد دون تفكير لكي يشبع غريزة كغريزة الجوع مثلاً . ويضع ما يأخذه في فمه أو يضربه لما يحدثه من صوت يبعث فيه السرور باللذة أو لما يشعر به من ارتياح في عضلاته تحدثه حركة الضرب . كما أنه يناضل ضد كل مؤثر يحاول أن يقيد حركاته » كما يجفل من كل صوت يسمعه . ويصبح ملء فيه إذا ما أصابه ألم ، أو حين لا تشبع له حاجته العضوية . ثم أنه يسر من بعض أفعاله الجسمية ويغتاظ بشدة إذا منع من إرضاء لذة بوسيلته الخاصة - هو متعلق

بجميع الأشياء والأشخاص الذين يعتبرون وسائل لإشباع حاجاته والذين يسبون له ارتياحاً وسروراً - أما إذا ما اعترض شخص أو شيء سبيله في البحث عن اللذة أو وقف حائلاً دون إشباع نزعاته الغريزية فإنه يتألم ويصبح ويقوم بحركات تدل على الغضب والحزن .

الحاجة إلى التربية المبكرة :

ولكن الطفل هو المثل الأعلى للكائن الحي الذي يتعلم من المواقف الجديدة عن طريق الإبداع والربط والتكييف أى أن جميع أفعاله الغريزية وميله التي تدفعه إلى البحث عن اللذة قابلة للتكييف تبعاً للظروف الجديدة .
وتبدأ عملية التكييف هذه أى التعلم عن طريق اكتساب حقائق جديدة وعن طريق تهذيب جديد في الحقائق وتشكيلها منذ الساعة التي يولد فيها الطفل .
ولو ترك الطفل نفسه لكيف حياته تبعاً لغرائزه ونشاطه الخاص الذي يرمى إلى البحث عن اللذة . ولكن هذه ليست الحال حتى مع أدنى الحيوانات .
وإذا ما نظرنا إلى القطة في الساعات الأولى من حياتها وهي في حى أمها المهتمة بها رأينا أن التربية تبدأ بعد الولادة مباشرة . فالواقع أن الأم (أو الأب أحياناً) توجه التربية في الاتجاهات التي ترى بالفطرة أنها أنسب للوصول إلى الأهداف الفسيولوجية التي يرى إليها الطفل الحيوانى . وذلك عند جميع الحيوانات التي تمر بمرحلة تعتمد فيها على غيرها مهما كانت هذه المرحلة قصيرة . فإذا كانت هذه حال التربية عند الحيوان فهي عند الطفل الإنسانى بشكل أقوى وأكثر تعقيداً لاعتماده مدة أطول على الغير ولضعفه الجسمى ويتتج عن هذا الاعتماد على الغير ميلان يدفعان الحياة في اتجاهين . وأحد هذين الاتجاهين أنه ينمو عند الطفل في هذه المرحلة شعور بالطمأنينة والتسامح في عالم يحده مليئاً من تلقاء نفسه بالخيرات . دون مجهود . ويزوده بما يرضى حاجاته الحيوية ويستبقى شعوره بالحياة وما يلابسها من اللذة العضوية . وأما الاتجاه الثانى المخادى للاتجاه الأول فهو إحاطته بنوع من التربية يحدد الأهداف والطرق وهو نوع من التربية يرى إلى تعديل اللذات وتعديل وسائل إشباع الغرائز وتشكيلها في صورة ثابتة .

وإذاً فمن الواضح أن السنوات الخمس الأولى : بالرغم من أنها السنوات التي يكون فيها الطفل أكثر تقبلاً للتعليم نظراً لمرورته هي أيضاً السنوات التي يكون

فيها قريباً من المستوى الحيواني للسلوك باعتباره حزمة من الغرائز . ولذلك فهو قلما يرغب في تحمل ألم ينشأ عن مقاومة ميوله الغريزية - ومن أجل هذه المرونة ينبغي أن يبدأ الأعداد للحياة الاجتماعية في هذه السنوات .

والواقع أن هذا الإعداد يبدأ فعلاً فيها . ولما كان التمييز بين العالم الداخلي والعالم الخارجي لا يدركه الطفل إلا إدراكاً غامضاً في هذه السنوات ، فإنه لا يشعر على الإطلاق بأهمية التواعد التي تفرض عليه والتقيود التي تقيد به . وبالتالي لا يستطيع أن يعلم شيئاً عن مصدر هذا الحد من نشاطه إلا أنه شئ في العالم الذي يعيش فيه قد أثر عليه تأثيراً ساراً أو غير سار - وعلى ذلك فعليه أما أن يتقبله أو أن يرفضه .

وإذا يمكن أن نقول فيما يتعلق بهذه المسألة إن الطفل يعاني قبل سنته الخامسة تقيداً لنشاطه من ناحية . ومن ناحية أخرى يتمتع باتساع هذا النشاط تبعاً لنظام البيئة المحيطة به . أي تبعاً لما يلاقه من سلطان أبويه عليه وسياساتهم معه ثم أسرته بعد ذلك .

البنية والوراثة :

والسؤال الذي يعرض لنا الآن هو ، كيف تظهر لدى بعض الأطفال صفات غريبة شاذة في سلوكهم ويصبحون أطفالاً « معضايين » في المنزل وفي المدرسة وفي المجتمع في حين أن جميع الأطفال يواجهون نفس المواقف في الأسرة وسيطر عليهم نفس الرغبات الغريزية ؟ والإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تكون إجابة قاطعة أساسها الاعتماد الفردي . ولكن الأبحاث الحديثة سوف تسمح لنا بأن نقول إن الأسباب الآتية تؤدي إلى وجود الطفل المشكل .

١ - فعل قوانين الوراثة التي تسلب في حالات المرض العقلي والجسمي ما للبروتوبلازما من قوة المناعة العادية التي تقاوم بها الأمراض فيأتي الطفل إلى هذا العالم وهو مغلول القوى .

٢ - فعلى عوامل البنية وتأثيرها في تكوين الغدد ووظائفها عند التمرّد مما يؤدي إلى فروق مزاجية . ويترتب على هذا وجود أنواع مختلفة من الناس بحسب استجاباتهم للمواقف المشابهة بطرق مختلفة .

٣ - ضعف الذكاء مما يؤدي إلى نقص في التفكير والتعقل ، وبالتالي

إلى تكوّن نحو المراحل التي يكون فيها الإشباع غريزيا ، ومن ثمة ينشأ الاتجاه إلى التكوّن مما نراه لدى الأطفال المتخلفين .

٤ - ظروف خاصة غير عادية في حياة الأطفال المبكرة مثل :

- (أ) التفرّد المدقع مما يؤدي إلى الحرمان من الطعام والحواء والشمس .
- (ب) انعدام الانسجام في المنزل إلى حد كبير مما يؤثر على الطفل أثراً سيئاً .

(ج) وجود شخص في الأسرة يحتاج للعناية والاهتمام كأخ مريض الخ .

(د) مكان الطفل في الأسرة كأن يكون الطفل الوحيد أو الطفل الأكبر .

(هـ) المرض المتكرر الذي يؤدي بالطفل إلى شعور مكتسب بالتقصير .

٥ - حالة اضطراب نفسي اجتماعي غارضة - مثل حداثة العهد بنقد أحد الوالدين أو كليهما أو تغير حالة الأسرة ومكانتها الاجتماعية والاقتصادية والصحية . الخ . . .

٦ - شذوذ متأصل في الطفل يبدو في نموه وفي حياته الغريزية مما يؤدي إلى الانحراف عن الطريق السوي للسلوك والشعور والتفكير - ومما يؤدي أحياناً إلى نمو سريع في الميول الغريزية والإفصاح عنها .

ومن الواضح جداً أن جميع هذه العوامل أو بعضها قد يؤثر في طفل واحد وبالذات بل أنه لمن الصعب أن نضرب مثلاً لطفل لا تؤثر فيه ثلاثة على الأقل من هذه العوامل .

وإذا درسنا الموضوع من وجهة نظر المنهج العلمي فإن كلا من العوامل الأربعة الأولى يؤثر تأثيراً جباراً في الشخصية أي أن الوراثة هي الأساس الأول - فهي السبب فيما نحن عليه سواء أكنّا مرضى أو أصحاء أو موهوبين جسيماً وعقلياً وبين لنا علم الوراثة وعلم الأجنة كيف انحدرت إلينا مميزاتنا الجسمية ولكننا نشك في أنه يستطع أن يبين لنا كيف ورثنا خصائصنا العقلية . فخصائص الخلق خداعة تجعل من الصعب أن نحدد بالضبط الدور الذي تلعبه الوراثة من الناحية العقلية إذ أننا لا نعرف ما إذا كانت الخصائص العقلية تنقل كوحداث في جرثومة الحياة أم لا . نعم نستطيع أن نرسم نشاطاً معيناً واضحاً صادراً عن القدرات الخاصة كالموسيقى والرياضيات والرسم ومع ذلك فإذا انتقلنا إلى الحالات الشاذة فإننا نكون أكثر علماً ومعرفة بها - وليس هذا لأن لدينا أساليباً تدعونا

إلى الاعتقاد بأن الأمراض أو نتائجها موروثية بل لأننا نستطيع أن نرى من الوجهة الإحصائية عن طريق معامل الارتباط أن هناك احتمالاً كبيراً مثلاً لأن يحدث مرض (س) في النسل إذا كان قد حدث مرض (أ) في والديه أو أجداده - وزيادة على ذلك يمكننا عن طريق دراسة تاريخ الأسرة دراسة دقيقة أن نرى بمعنى شامل ما إذا كانت وراثة (أ) التي لها علاقة بـ (س) عامة أم متخلفة - وعلى ذلك فمن المهم لتوضيح المشكلة التي نحن بصدد حلها أن نستفيد من أى اكتشاف قد يساعدنا على أن نربط المرض النفسى للطفل بالاستعداد الوراثى .

أما فيما يتعلق بمجموعة العوامل الثانية أى عوامل البيئة فإننا نجد أنها عامة أى أنها تؤثر على تكوين الخلق فى كل واحد منا - ومع ذلك فإن علينا أن نكتشف إلى أى مدى يمثل الطفل نوعاً خاصاً متطرفاً من الأنواع المزاجية - وأن نرى ما إذا كانت الحقائق المتعلقة بحياته ووظائف أعضائه قبل ظهور الشذوذ الخلقى تفسر لنا خصائص هذا الشذوذ أو أن هناك عوامل أخرى يجب البحث عنها . فإن مزاج الرجل أو المرأة إذا ما عبرنا عنه بلغة مجازية إنما هو خليط من جميع الرغبات والميول أى أن لدى معظمنا أجزاء من الألوان المزاجية المختلفة وأنها تتحد بعضها ببعض فى نظام واحد كما تتحد ألوان الطيف الشمس فى المنشور مرة أخرى - وقد يحدث ما يساعد على نمو إحدى الصفات على حساب الصفات الأخرى نتيجة للوراثة أو لمرض مكتسب أو لثورة - نفسية .

الذكاء المحدود :

مما لا شك فيه أن لدرجة الذكاء الأهمية الأولى فى قدرة الإنسان على التكيف حسب المواقف المحيطة به فى العالم الخارجى . تلك المواقف التى تحتاج إلى أكثر من العمل الآلى الذى تدفع إليه الغرائز . وقد عرف ابن جهموس - أحد رواد الاختبار العقلى الأولين - الفعل المبني على الذكاء بأنه « جمع عدد كبير من الآثار المتلازمة المستقل بعضها عن بعض فى وحدة لها معنى أو فى كل يهدف إلى غرض بطريقة ما » وقد وضعت اختبارات لفظية وعملية لتقدير الذكاء فى الأعمار المختلفة فنحن نتوقع فى كل سنة من سنى حياة الإنسان قدرة معينة على ربط الظواهر المحيطة به بعضها ببعض وفهمها - وعلى ذلك فالطفل ينجح

أو يفشل لأن لديه هذه القدرة (الذكاء) التي يتناضل بها في عالمه لكي يحقق لنفسه الأغراض الطبيعية فضلاً لا يتلاءم مع نشاط أقرانه الذين في سنه - والذين أتوا مواجه . ويخضع الذكاء في نموه لتكامل الحواس والمجموع العصبي المخي الذي بدوره يصبح التعبير اللغوي وما يقوم عليه من نمو في المعرفة مستحيلاً أو ناقصاً - وقد ترجع هذه القدرة على ضبط الذكاء وتحديد نموه إلى المجموعة الأولى والثانية من العوامل التي سبق ذكرها - والغالب أنها كذلك ولكن هناك من يجادلون في أن الذكاء مستقل عن الوراثة والبيئة .

وإنه ممكن أن ينظر إليه باعتباره صفة مستقلة للعقل ، وعلى أي حال فالواجب على من يقوم بفحص الطفل المشكل أن يعتبر الذكاء عاملاً ضمن التشخيص الكلي . كما يجب عليه لكي يؤدي عمله بطريقة صحيحة ويستخدم النتائج لتوضيح أي مشكلة في السلوك أن يقوم بفحص دقيق للتقدرات الخاصة أو لما يكون هناك من نقص في هذه القدرات وأن يتلمس ما بين نقص القدرات ونقص الحواس من صلة ثم يربطها جميعاً بحالة البنية وإذا ما طبق مثل هذا البحث على عدد كبير من الحالات فإنه سوف يساعدنا على أن نكشف عن علاقات بين المواقف العقلية التي ما زلنا ننظر إليها من الناحية الإدراكية فقط وبين الاضطرابات المزاجية ، وبهذه الطريقة نستطيع أن نصل في بعض الحالات من الشذوذ المزاجي إلى الكشف عن نقص عقلي خاص فنصل إلى معالجة النقص الأساسي . وبالعكس قد نستطيع أن نرجع النقص العقلي إلى علته المزاجية أو إلى الموقف النفسي الخاص الذي ربما نشأت عنه العلة المزاجية .

الظروف المهيئة لعدم التكيف :

ويقودنا هذا إلى العامل الرابع أي الظروف الخاصة المحيطة بالحياة الأولى والتي تؤدي إلى عدم التكيف . وتوضح الصورة التي رسمناها أننا لغرائز الطفل وحياته الانفعالية تعقد وتأصل هذه الناحية من المشكلة . وعلماء النفس المتساهلون هم وحدهم الذين يستطيعون أن يرهقوا أنفسهم وغيرهم بعلى وعبارات محفوظة يرددونها . غير أن الأمر من الأهمية بحيث يستدعي أن نقوم إذا تمكنا ببحث مزدوج فنقوم أولاً بفحص دقيق للوالدين والأقرباء الأذنين لكي نفسر سلوك الطفل منذ سنواته الأولى . ومن الطبيعي أن تكون هذه الدراسة موضوعية أي أن ننظر إلى الطفل

كآلة تقوم بأرجاع معينة لكل المؤثرات والحوادث الخارجية التي يمكن أن تقدرها ونعرفها بدقة ولكن إذا اعترفنا بأن الطفل في سنواته الأولى مخلوق له رغباته وله قدرته على الاختبار سواء صدرت هذه القدرة عن العاطفة أو العقل فإننا نجد أن الدراسة الموضوعية لا تكفي فيجب أن ننفذ إلى أعماق الطفل لكي نكشف عما يشعر به حقاً نحو العالم الذي جاء إليه . وما هي القيم التي كونها عن الأشخاص والأشياء التي تحيط به في هذا العالم سواء كانت هذه القيم خاطئة أم صحيحة . وسوف نتناول في مقالة أخرى المدى الذي يكون فيه هذا البحث ممكناً كما نتناول أيضاً إذا كان من الجائز لنا تفسير المعارف التي نصل إليها . وسوف تكون الدراسة الموضوعية ذات قيمة بل قد تكون لها قيمة علاجية كما حدث في بعض الحالات عندما يتوافر عندنا عدد كبير من الباحثين القادرين والمقتنعين بالربط بين حالات أسرية واجتماعية معينة وبين شذوذ سلوكي معين . وإذا ففي هذه الحالة من البحث سيكون لكل عامل من عوامل المجموعة الرابعة السابقة ناحية بحث مزدوجة فهو لا يصير تفسيراً موضوعياً كاملاً عن حالة عدم الانسجام التي تسود الأسرة فقط بل أنه ليكشف أيضاً عما كان عليه موقف الطفل تجاه عدم الانسجام هذا . أي أننا لا نكتشف فقط أن أحد أعضاء الأسرة كان محبوباً بل نكتشف أيضاً أن اضطراب الطفل قد تأثر تأثيراً ذاتياً بهذا الحب .

وأخيراً يجب أن نلقى نظرة على مجموعة العوامل الستة حتى نعيد تكوين صورة صورة كانت كاملة عند ما بدأنا الدراسة ثم تجزأت نتيجة هذه الدراسة . هذا هو العمل الذي علينا أن نقوم به وقد ينشأ حل المشكلة عن اكتشاف الشذوذ واستثاله كما قد ينشأ غالباً عن هجوم مضاعف على مواقف عديدة مشكلة زغبة في حلها جميعاً . وقد لا نكتشف الخطأ من أول محاولة ولكننا نحتاج إلى عدة هجمات قبل أن نتغلب على الصعوبات ونذللها .